أثر العبادات في الإصلاح الاجتماعي.

بقلم الدكتور الشيخ ماجد الدرويش[1]

العبادات لها أركان وسنن وآداب. أما أركانها وسننها فهي هيئاتها المعروفة، وأما آدابها فهي التي تكسب الإنسان الأخلاق الحسنة والسلوك الحسن والذكر الجميل في الناس.

جاء في كتاب "الآداب الشرعية"[2]: " ويسن أن يتعلم الأدب والسمت والفضل والحياء وحسن السيرة شرعا وعرفا"[3].

وفي الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد[4] عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: (إن الهدي الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة).

قال الإمام ابن الأثير[5] في "نهايته"[6] : "الهدي السيرة والهيئة والطريقة ، ومعنى الحديث: أن هذه الخلال من شمائل الأنبياء ومن جملة خصالهم وأنها جزء معلوم من أجزاء فضائلهم"[7]

فالسمت الحسن والأخلاق الحسنة تعين على الفضائل وبخاصة في قضايا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذه أمور ترتبط ارتباطا وثيقا بالحياة الاجتماعية والعلاقات بين الناس، والتي ينبغي أن تبنى على الألفة والمودة والاحترام المتبادل. وقد قال الله تعالى: ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا .. ﴾[8] والتعارف يستلزم التآلف

---

[1] - مدير مكتب سماحة مفتي طرابلس والشمال، وأستاذ محاضر في جامعة الجنان.

[2] - الآداب الشرعية والمنح المرعية، تأليف: محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الرامينى ثم الصالحي الحنبلي (المتوفى: ٧٦٣هـ). الناشر: عالم الكتب.

[3] - ج ١ / ص ٤١٨ ، فصل في تعلم الأدب وحسن السمت والسيرة والمعاشرة والاقتصاد.

[4] - مسند الإمام أحمد بن حنبل / من مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، ٤ / ٤٣١ . من طبعة الشيخ شعيب الأرنؤوط، طباعة مؤسسة الرسالة. حديث رقم: (٢٦٩٨) .

[5] - هو : الإمام مجد الدين، أبو السعادات، المبارك بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الكريم، الشيباني، الجزري، المعروف بابن الأثير الجزري (المتوفى: ٦٠٦هـ).

[6] - النهاية في غريب الحديث والأثر.

[7] - ٥ / ٢٥٣ مادة (هدا).

[8] - من الآية (١٣) من سورة الحجرات.

والتراحم. وأكثر ما ينبغي أن يظهر التراحم في مسائل النصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وفي الآداب الشرعية لابن مفلح:

سأل الإمام أحمد رجلا، فقال: أكون في المجلس فتذكر فيه السنة لا يعرفها غيري أفأتكلم بها؟ فقال: أخبر بالسنة، ولا تخاصم عليها. فعاد عليه القول، فقال: ما أراك إلا رجلا مخاصما. وهذا المعنى قاله مالك، فإنه أمر بالإخبار بالسنة، قال: فإن لم يقبل منك فاسكت. انتهى؟

هذه الأخلاق الحسنة وهذه الرحمة في التعامل بين الناس ينبغي أن تساعد عليها العبادات الشرعية.

كيف يمكن أن تساهم العبادات في الإصلاح الاجتماعي؟

الزكاة

الإصلاح يبدأ من النفس، والذي يعيش في مجتمعٍ ما ينبغي أن يراعي فيه حقوق الآخرين، وإلا كان أنانيا متخلقا بأخلاق إبليس التي أدت إلى طرده من رحمة الله تعالى.

وعبادة الزكاة من العبادات التي تحمل في طياتها معنى المشاركة، عندما تؤدى بشروطها وآدابها تساهم في تمتين العلاقات الأخوية بين أبناء المجتمع الواحد. فالزكاة حق للفقير في مال الغني، وبالتالي الذي لا يدفعها هو آكل لحق الفقير، فعندما ينظر إليها صاحبها من هذه الزاوية فإن هذه النظرة تجعله لا يتكبر على الفقير الذي يعطيه الزكاة لأنه يعطيه حقا له، كمن عليه دين فهو يؤديه فلا منة له في ذلك لأنه يدفع حقوق الناس إلى أصحابها، وبالتالي لا يحق له أن يمنهم بذلك، بل يحرم عليه ذلك، وفي الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: (لا يدخل الجنة منان)، وفي حديث آخر متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما: (ثلاثة لا ينظر الله عز وجل إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، ومدمن الخمر، والمنان بما أعطى) .

ولا يعني ذلك أن لا يشكر الفقير المزكي على ما أنفق، بل واجبه الشرعي أن يشكره، وأن يدعو له بالخير.

ف عن أبي هريرة - رضي الله عنه - مرفوعا «لا يشـ كر الله من لا يشكر الناس»[9] . قال في نهاية[10]: " معناه أن الله تعالى لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذا كان العبد لا يشكر إحسان الناس ويكفر أمرهم؛ لاتصال أحد الأمرين بالآخر.

وقيل معناه أن من كان عادته وطبعه كفران نعمة الناس وترك شكره لهم كان من عادته كفر نعمة الله عز وجل وترك الشكر له.

وقيل معناه أن من لا يشكر الناس كان كمن لا يشكر الله عز وجل وأن شكره كما يقول لا يحبني من لا يحبك أي أن محبتك مقرونة بمحبتي فمن أحبني يحبك، ومن لا يحبك فكأنه لم يحبني". انتهى.

فهذا الشكر من الفقير إلى الغني الذي دفع إليه صدقته يترك في نفس الغني رضا وسرورا من فعله، مما يشجعه على أمثاله، وهذا من أهم الوسائل التي تنزع الشعور بالنفور بين الغني والفقير، فلا الغني يتكبر على الفقير، ولا الفقير يحقد على الغني، وهذا من أهم أسباب استقرار المجتمعات، وهل استقرارها إلا باستقرار العلاقة بين أفرادها؟ فكم من ثورة قامت بسبب حقد الفقراء على الأغنياء لشعور الفقراء بانتقاص حقهم وقدرهم في المجتمع.

فإذا روعيت هذه الأخلاق في عبادة الزكاة فإنها كفيلة بنزع فتيل من أهم فتائل التفجير في المجتمع، وبالتالي تكون عبادة الزكاة عامل استقرار وإصلاح اجتماعي مهم. تتكامل مع الصلاة في بناء جسور المودة والألفة بين الناس.

---

[9] - أخرجه الإمام أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة رضي الله عنه، حديث رقم: (٧٩٣٩)، ٣٢٢/١٣.

[10] - النهاية في غريب الحديث والأثر: باب: الشين مع الكاف، ٢/ ٤٩٣.

الصلاة

الصلاة تجمع الفقراء والأغنياء، تجمع الحاكم والمحكوم، في صف واحد، أمام إله واحد، الكتف على الكتف، والقدم على القدم، لا تنافر، ولا اشمئزاز، طالما أن آداب صلاة الجماعة مراعاة. فمن آدابها:

السمت الحسن، والسمت المظهر، **ومنه الثياب** التي هي عنوان المظهر الحسن.

قال الله تعالى: ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾.

وقد نقل عن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في كتاب الأم[11] أن الزينة هي الثياب.

وهل يكتفى بالثوب الذي يستر العورة فقط؟

الذي يفهم من كلام العلماء أنه لا بد من أن الثوب لائقا، سابغا، زائدا على مجرد ستر العورة. وقد أخذوا ذلك من حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يصلي أحدكم في الثوب الواحد ليس على عاتقيه منه شيء)[12]. قال الإمام الشافعي: فدل على أن ليس لأحد أن يصلي إلا لابسا إذا قدر على ما يلبس.

والذي يطلب ستره في الصلاة مقداران: الأول مقدار الواجب الذي لا تصح الصلاة إلا به، وهو ستر العورة. والثاني مقدار الفضيلة، قال الإمام أبو الوليد الباجي في المنتقى[13]:

" وأما مقدار الفضيلة للرجال فأن يكون على كتفيه ثوب يستر هما ويكره أن لا يبقي على كتفيه من ثوبه شيئا إذا أمكنه ذلك ... ومن جهة المعنى أن في ذلك خروجا عن الوقار المشروع في الصلاة ".

فنفهم من كل هذا أنه لا ينبغي أن يكتفي المصلي بثوب يستر عورته فقط في الصلاة مع القدرة على لبس الثوب السابغ.

---

[11] - ينظر كتاب الأم، باب (جماع لبس المصلى).

[12] - متفق عليه.

[13] - المنتقى شرح الموطأ، باب صفة الملبوس بالليل في الصلاة، ١ / ٢٤٨ .

وقال الإمام ابن دقيق العيد: " هذا النهي معلل بأمرين:

أحدهما: أن في ذلك تعريضا للثوب، ومخالفة الزينة المسنونة في الصلاة. والثاني: أن الذي يفعل ذلك إما أن يشغل يده بإمساك الثوب أو لا. فإن لم يشغل خيف سقوط الثوب، وانكشاف العورة. وإن شغل كان فيه مفسدتان:

إحداهما: أنه يمنعه من الإقبال على صلاته، والاشتغال بها.

الثانية: أنه إذا شغل يده في الركوع والسجود لا يؤمن من سقوط الثوب، وانكشاف العورة".[١٤].

واليوم نرى في مساجدنا منظرا جديدا، وهو: دخول الشباب إلى المساجد لأداء الصلوات وهم يلبسون السراويل القصيرة (الشورت) التي تكاد تصل إلى الركبة، مع القمصان الداخلية التي لا أكمام لها (الفانيلا)، فتراه إذا سجد انكشفت سوءته لكثرة ما يحرص على شد السروال ليغطي الركبة. مما يؤدي شرعا إلى فساد صلاته لانكشاف عورته.

كما يؤدي بشكل غير متعمد إلى نفور بين لابس هذه الثياب وبين المصلين الذين أخذوا زينتهم للصلاة، فتتباعد القلوب. ولربما أدى ذلك إلى شيء من الشحناء، وبخاصة عندما يقوم الكبار بواجب النصيحة لهؤلاء الشباب فيجدون من بعضهم صدودا وقلة أدب، الأمر الذي يجعل قلوب المصلين متباعدة متنافرة، وهو خلاف المطلوب الشرعي.

هذه المناظر تحمل في طياتها إشارات غير مشجعة على أن هؤلاء الشباب لا يعظمون شعائر الله، والصلاة أهم شعيرة من شعائر الله سبحانه، فينبغي أن تلقى من التعظيم والاهتمام الشيء الكثير، وبخاصة أنها العبادة الوحيدة التي لا تسقط عن المكلف مهما كانت الظروف.

فلما كان هؤلاء الشباب غير معظمين لشعائر الله تعالى وجدناهم لا يجلون الكبار، ولا يقدرون حضورهم مجالس جماعة المسلمين، الأمر الذي يعتبر من جملة الأسباب التي أدت إلى تفكك المجتمع وضعف روابطه الاجتماعية، والذي من صوره عدم توقير الصغير للكبير، فأدى إلى

---

[١٤] - إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام: ١ / ٣٠١ .

عدم رحمة الكبير للصغير، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: (ليس منا من لم يوقر كبيرنا، ويرحم صغيرنا)[١٥].

ومن حسن السمت :الرائحة الحسنة: وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم من تفوح منه رائحة مزعجة من حضور تجمعات المسلمين في المساجد، فقال: (من أكل من هذه الشجرة وفي رواية الخبيثة، فلا يقربن مسجدنا، يؤذينا بريح الثوم)[١٦]. قال الإمام محمد بن الحسن الشيباني رحمه الله تعالى: إنما كره ذلك لريحه، فإذا أمته طبخا فلا بأس به[١٧].

وقد قاس العلماء على هذا الحديث كل رائحة كريهة تزعج المصلين، فإن الإنسان إذا فاحت منه رائحة مزعجة تركت نفورا في نفس من يجاوره في الصلاة، وقد يدخل الشيطان بينهما من هذا الباب ليوقع بينهما العداوة والبغضاء، وبخاصة أن من يتأذى من هذه الرائحة تجده يحرص على أن تكون بينه وبين من تفوح منه هذه الرائحة مسافة تقيه أذى الرائحة الكريهة، الأمر الذي يورث في نفس من تفوح منه هذه الرائحة شعورا بأنه غير مرغوب فيه، أو أن مجاوره يتكبر عليه لذلك هو يبتعد عنه.

بينما لو كانت الرائحة تفوح من المصلي زكية فإنها تترك في نفس مجاوره أثرا طيبا، وتفتح باب للتآلف والتواد، وتغلق كل منافذ الشيطان السابقة التي قد يلج منها للإيقاع بين المصلين.

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أقيموا الصفوف؛ فإنما تصفون كصفوف الملائكة، حاذوا بين المناكب وسدوا الخلل، ولا تذروا فرجات الشياطين، ومن وصل صفا وصله الله)[١٨]. وفيه تصريح بأن التباعد في الصلاة بين المصلين من أسباب إيقاع الشيطان بينهم. والرائحة الكريهة سبب من أسباب هذه الفرج فلا بد من سدها!.

ومن السمت الحسن: عدم رفع الصوت: فمن المظاهر النافرة التي تعج بها مساجدنا اليوم رفع الصوت في المساجد بما لا علاقة له بالصلاة ولا بقراءة القرآن، ولا يسكن الصوت إلا أثناء

---

[١٥] - أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص من مسند المكثرين من الصحابة، برقم (٦٩٣٥) و (٦٩٣٧)، ١١ / ٥٢٩ .

[١٦] - موطأ الإمام مالك برواية الإمام محمد بن الحسن الشيباني، أبواب الصلاة، باب ما يكره من أكل الثوم. حديث رقم (٩٢٠).

[١٧] - المرجع السابق نفسه ، ص: ٣٢٥.

[١٨] - أخرجه بهذا اللفظ الدولابي في الأسماء والكنى، من حديث أبي شجرة رضي الله عنه.

صلاة الجماعة فقط، وما إن تنتهي الصلاة المفروضة في جماعة حتى يتحول المسجد إلى ما يشبه خلية الدبابير بالأصوات التي تشوش على من يريد الجلوس للتسبيح والذكر، أو من يريد صلاة النافلة، مما يترك في نفس مريد النافلة استياء من مصدري هذه الأصوات، وغالبهم من الشباب، الأمر الذي يساهم في توسيع الهوة بين الجيل الجديد والجيل القديم، فتنعدم الرحمة، وينعدم الاحترام المتبادل، وهذا خلاف المطلوب الشرعي.

وفي الحديث، عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما، قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة رمضان والناس يصلون، فقال: (لا يجهر بعضكم على بعض، فإن ذلك يؤذي المصلي)[١٩].

فإذا كان الجهر بالقرآن ممتنع حتى لا يشوش الناس على بعضهم فما بالكم برفع الصوت بالكلام العادي؟.

<u>ومن السمت الحسن تقديم الأكبر سنا وقدرا في الصفوف الأولى</u>، كما في حديث عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ليليني منكم أولوا الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم)[٢٠].

فمن الصور النافرة التي تشهدها مساجدنا وجود كثير من الأطفال، وغالبهم دون سن التكليف، في الصفوف الأولى في الصلاة، وغالبا يأتون برفقة آبائهم، فإذا طلب منهم الرجوع إلى الصفوف الخلفية عملا بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، غضب آباؤهم، وربما أحدثوا جلبة في المسجد، بل ربما اتخذ بعضهم قرارا بعدم الصلاة في هذا المسجد ثانية، مصححا الخطأ بخطأ أكبر منه، مما يترك في نفس الصبية أثرا عدائيا وقلة احترام لتوجيه الكبار لهم. مع العلم أنهم إنما أمروا بما طلبه منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا ينبغي لآبائهم أن يقفوا هذا الموقف، بل عليهم أن يبادروا هم إلى تعليم أبنائهم هذا الأدب، وأن يقفوا بهم في الصفوف الخلفية تعليما لهم وتأديبا.

فهذه الأخلاقيات السلوكية في دخول المساجد بقصد العبادة عندما تراعى تترك في النفوس آثارا إيجابية، وتعزز خلق التراحم والاحترام بين شرائح المجتمع الواحد، فيشعر الكبير أنه

---

[١٩] - أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط، ح (٢٣٦٢)، ٢٧/٣.

[٢٠] - أخرجه الإمام البزار في مسنده، حديث رقم (٣٨٢٣) ، ٢٧٤/٩.

محترم، ويشعر الصغير أنه مرحوم، ويصبح الكبير محل الأسوة للصغير. وهل المجتمع إلا هذه العلاقة الجميلة القائمة على الرحمة والتراحم والاحترام؟

الصوم

أما الصوم فهو المدرسة التي يتعلم فيها المكلف كل هذه الأخلاقيات والسلوكيات، لأنها تحتاج إلى مجاهدة للنفس لدفعها عن غيها، ومنعها من أنانيتها، الأمر الذي يتطلب إرادة صادقة في تحري ذلك والتخلق به. فتأتي مدرسة الصوم التي تعود الإنسان على ترك أمور هي في الأصل حلال في أوقات معينة، فمن ملك نفسه في أن يمنعها مما أحله الله تعالى لها، فهو على منعها مما حرمه الله عليها أقدر.

والامتناع عن المنكرات والفواحش يحتاج إلى ضبط للنفس عند الشهوة، والصوم خير مدرسة يتعلم المرء فيها ضبط النفس وعدم الانصياع وراء الشهوات. وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)[٢١].

و" الصيام من الصبر، وقد قال الله تعالى: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ ، ولهذا ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سمى شهر رمضان شهر الصبر[٢٢]. وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وسلم قال: (الصوم نصف الصبر)[٢٣].

والصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن محارم الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة. وتجتمع الثلاثة في الصوم فإن فيه صبرا على طاعة الله، وصبرا عما حرم الله على الصائم من

---

[٢١] - أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ، كتاب الأدب ، باب: الحذر من الغضب، حديث (٦١١٤) ، ج ٨ ، ص ٢٨.

[٢٢] - جاء ذلك في الحديث الذي أخرجه الإمام ابن خزيمة في صحيحه، كتاب الصيام، باب: فضائل شهر رمضان، وقال: إن صح الخبر. حديث رقم (١٨٨٧)، ٣/ ١٩١. عن سلمان الفارسي بحديث طويل، وفيه: (وهو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة).

[٢٣] - جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث رجل من بني سليم، حديث رقم (١٨٢٨٧) ، ٢١٩/٣٠.

الشهوات (والمفطرات)، وصبرا على ما يحصل للصائم فيه من ألم الجوع والعطش وضعف النفس والبدن"[٢٤].

أثر الصوم في الإصلاح الاجتماعي

فإذا عود الصائم نفسه على الصبر والتحمل، استطاع أن يستوعب من حوله من الناس، وبخاصة عند الخطأ، فلا يتسرع بمواقف يندم عليها تكسر العلاقة بينه وبينهم، ولا يخفى ما في ذلك من الحفاظ على علاقات الود والألفة بين الناس، ونشر الأمان والطمأنينة فيما بينهم. فإذا أضيف إلى ذلك العفو والمسامحة كانت العلاقات أجمل، والروابط أكمل، والنفس مجبولة على حب من أحسن إليها. وقد قال الله تعالى: ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾.

وإذا عرفنا أن دعاء ليلة القدر هو طلب العفو، كما في حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: يا نبي الله، أرأيت إن وافقت ليلة القدر، ما أقول؟ قال: (قولين: اللهم إنك عفو تحب العفو، فاعف عني)[٢٥].

إذا عرفنا هذا أدركنا كم أن العفو من أسباب انتشار خلق المحبة والتسامح بين الناس، ولا يخفى ما لهذا الخلق من أثر على الحياة الطيبة، واستقرار المجتمعات.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى: " العفو من أسماء الله تعالى وهو يتجاوز عن سيئات عباده الماحي لآثارهم عنهم، وهو يحب العفو فيحب أن يعفو عن عباده، ويحب من عباده أن يعفو بعضهم عن بعض، فإذا عفا بعضهم عن بعض عاملهم بعفوه، وعفوه أحب إليه من عقوبته "[٢٦].

---

[٢٤] - من كتاب (لطائف المعارف لما في مواسم العام من الوظائف) للحافظ ابن رجب الحنبلي، باب: وظائف شهر رمضان المعظم. وما بين القوسين () زيادة مني.

[٢٥] - أخرجه الإمام أحمد في مسنده، مسند النساء، مسند الصديقة عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما، رقم (٢٥٣٨٤)، ٢٣٦/٤٢.

[٢٦] - من كتاب: (لطائف المعارف) مرجع سابق.

الحج

ثم تأتي عبادة الحج التي تمثل صورة مصغرة عن العالم الذي يطمح إليه الإسلام: عالم لا يتعاظم فيه الغني بغناه على الفقير، ولا يشعر الفقير بفقره أمام الغني، ولا الأمير بفضله على المأمور، ولا المحكوم بتذلله أمام الحاكم، بل الجميع أمام الله تعالى سواء. (لا فضل لعربي على عجمي... إلا بالتقوى). كما قال النبي صلى الله عليه وسلم للناس في حجة الوداع[٢٧].

إنها الرحلة الشاقة للنفس البشرية نحو التجرد والتواضع وإرادة الخير للآخرين كائنا من كانوا. فالحاكم لا يشغله إلا خوفه من الله تعالى أنه سوف يسأله عن كل هؤلاء الناس يوم القيامة، فيدفعه ذلك إلى العدل فيهم، والسير فيهم بسيرة حسنة، وقضاء حوائجهم، والسهر على راحتهم، (فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)[٢٨].

والمحكوم يشعر بالانتماء الحقيقي إلى هذا المجتمع الذي يؤمن له حاجياته، ويحفظ له إنسانيته، فهو بذلك معني بالحفاظ عليه، والحرص على أمنه، وبالتالي لن يسمح ليد الغدر أن تفعل فعلها فيه، فيصبح حقيقة كل مواطن خفير. وهل الأمن إلا ذاك؟

ويوم قدم هرمزان، رسول كسرى، إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، وبحث عن قصر الإمارة فلم يجده، وسأل عن عمر بن الخطاب أمير العرب، فدلوه عليه نائما وحيدا تحت شجرة في البقيع، فوقف المرزبان مشدوها وقال قولته المشهورة : " حكمت، فعدلت، فأمنت، فنمت يا عمر"[٢٩].

---

[٢٧] - أخرج الإمام أحمد في مسنده حديث خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، وفيه: (يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى، ألا بلغت؟)، قالوا: بلغ رسول الله، ثم قال: (أي يوم هذا؟)، قالوا: يوم حرام، ثم قال: (أي شهر هذا؟)، قالوا: شهر حرام، قال: ثم قال: (أي بلد هذا؟)، قالوا: بلد حرام، قال: (فإن الله قد حرم بينكم دماءكم وأموالكم) ، قال: ولا أدري قال: وأعراضكم، ألم لا. (كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا بلغت؟)، قالوا: بلغ رسول الله، قال: (ليبلغ الشاهد الغائب).

[٢٨] - جزء من حديث أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه، منها: كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ ، حديث (٧١٣٨).

[٢٩] - هذه قصة مشهورة مأثورة في سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أنه لا يعلم لها سند في كتاب، والله أعلم. وقد شكك بثبوتها العلامة الشيخ مصطفى العدوي الأزهري في تفسيره، عند تفسير قول الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا﴾ من سورة النساء، فقال: " ومن

هذه العبارة، قليلة الكلمات، تختزن في طياتها معاناة مريرة مع حاكم متسلط مستبد يشعر أن كل فرد في المجتمع هو خصم له، لأنه عندما حكم ظلم فلم يعدل، فخاف فلم ينم خوفا على نفسه، وحتى من أقرب المقربين إليه.

وفي هذا يقول شاعر النيل (حافظ ابراهيم) :

وراع صاحب كسرى أن رأى عمرا..... بين الرعية عطلا وهو راعيها

وعهده بملوك الفرس أن لـها... سورا من الجند والأحراس يحميها

ـره مستغرقا في نومه، فرأى ..... فيه الجلالة في أسمى معانيها

فوق الثرى، تحت ظل الدوح مشتملا ببردة، كاد طول الدهر يبليها

فهان في عينه ما كـان يكبره..... من الأكاسر والدنيا بأيديها

وقال قولة حق أصبحت مثلا..... وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها

أمنت لما أقمت العدل بينهمو ..... فنمت نوما قرير العين هانيها.

الناس من يستدل بأقوال لا أعلم لها أصلا وخاصة الوارد عن عمر لما رآه أحدهم نائما فقال: (حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر) ، فلم يجد عنده حراس ولا غير ذلك، وهذا الأثر لا أعلم له سندا والأسانيد الثابتة إلى عمر بخلاف ذلك، فإن عمر كان يتخذ الحجبة والبوابين، ففي الصحيح أن عمر كان في مجلسه وله غلام يقال له: يرفأ، فقال: يا أمير المؤمنين هذا عثمان يستأذن عليك، قال: فأذن له، ثم قال: هذا عبد الرحمن بن عوف يستأذن عليك، قال: فأذن له.

وأيضا أراد عيينة بن حصن الفزاري أن يدخل على عمر فلم يستطع، فقال لابن أخيه الحر بن قيس: يا ابن أخي! إن لك وجاهة عند هذا الأمير فاستأذن لي في الدخول عليه، فاستأذن الحر بن قيس لعمه عيينة بن حصن الفزاري في الدخول على عمر". انتهى.

ولا أرى منافاة بين الخبر الوارد وبين ما ثبت عنه أنه اتخذ حجبة، فالحجبة في بيت الإمارة لا بد منهم لتنظيم قضاء حوائج الناس، أما خبر المرزبان فهو كان في العراء وفي وقت راحة عمر رضي الله عنه عند الهجير وقت القيلولة والراحة فآثر أن يقيل في البقيع، وهذا وقت لا يحتاج فيه عمر إلى حجبة. وشهرة الخبر تغني عن إسناده، ولا يستنكر هذا في علم التواريخ. والله أعلم.

الخلاصة

هذا كله ترجمة عملية لقول الله تعالى: ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ..﴾.

بهذه الانعكاسات السلوكية للعبادة تحيا المجتمعات آمنة مطمئنة، لا ظالمة ولا مظلومة، وبمثل هذه السلوكيات تستقر وتأمن عوادي الطامعين وكيد الكائدين، وبهذه السلوكيات الراقية تنتشر الألفة والمودة بين أبناء المجتمع، فيتحصن من نزوات إبليس، والله تعالى يقول: ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا﴾.

وإذا عرفنا هذا كله أدركنا عمق ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم: (إن من أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وإنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)[٣٠].

وأدركنا لم كان صاحب الخلق الحسن من أفضل المسلمين، كما في الحديث الصحيح: (خيركم إسلاما أحاسنكم أخلاقا، إذا فقهوا)[٣١]. ومن الفقه مراعاة آداب العبادات.

وأدركنا لم كان صاحب الخلق الحسن أقرب الناس مجلسا من النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة، كما في الحديث: (ألا أخبركم بأحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا)، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: (أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون)، ثم قال: (ألا أخبركم بأبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسا)، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: (الثرثارون المتشدقون المتفيهقون)، قالوا: يا رسول الله، قد عرفنا الثرثارون المتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: (المتكبرون)[٣٢].

نسأل الله تعالى أن يعيننا على التخلق بأخلاق الصالحين، وأن يكرمنا بالقرب من سيد الأولين والآخرين، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم. آمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

[٣٠] - أخرجه ابن وهب القرشي في جامعه، باب العزلة، حديث رقم (٤٨٣) ، ص: ٥٨٤.

[٣١] - أخرجه الإمام أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة، رقم (١٠٢٤٠)، ١٧٣/١٦.

[٣٢] - أخرجه الإمام معمر بن راشد في جامعه، ملحق بمصنف عبد الرزاق الصنعاني، حديث رقم (٢٠١٥٣)، ١٤٤/١١.

المراجع:

١- الآداب الشرعية والمنح المرعية، تأليف: محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الراميني ثم الصالحي الحنبلي (المتوفى: ٧٦٣هـ). الناشر: عالم الكتب.

٢- مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ) تحقيق: الشيخ شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

٣- النهاية في غريب الحديث والأثر، تأليف: مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري، المعروف بابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي.

٤- كتاب الأم للإمام أبي عبد الله، محمد بن إدريس الشافعي، المطلبي، القرشي المكي (المتوفى: ٢٠٤هـ)، الناشر: دار المعرفة – بيروت، الطبعة: بدون طبعة، سنة النشر: ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

٥- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، المشهور بصحيح البخاري، للإمام محمد بن إسماعيل أبي عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: الأستاذ الدكتور محمد زهير بن ناصر الناصر. الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٦- صحيح الإمام مسلم: المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، للإمام مسلم بن الحجاج أبي الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٧- المنتقى شرح الموطأ، للإمام أبي الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي القرطبي الباجي الأندلسي (المتوفى: ٤٧٤هـ)، الناشر: مطبعة السعادة - بجوار محافظة مصر، الطبعة: الأولى، ١٣٣٢ هـ.

٨- إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام، للإمام تقي الدين أبي الفتح محمد بن علي بن وهب ابن مطيع ابن دقيق العيد القشيري المنفلوطي المصري المالكي الشافعي المتوفى سنة (٧٠٢ هـ). الناشر: مطبعة السنة المحمدية، بدون طبعة وبدون تاريخ

٩- موطأ الإمام مالك برواية الإمام محمد بن الحسن الشيباني رحمهما الله تعالى، تعليق وتحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، الناشر: المكتبة العلمية، الطبعة الثانية، مزيدة منقحة.

١٠- الكنى والأسماء للإمام أبي بِشر محمد بن أحمد بن حماد بن سعيد بن مسلم الأنصاري الدولابي الرازي (المتوفى: ٣١٠هـ)، تحقيق: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، الناشر: دار ابن حزم - بيروت/ لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م.

١١- المعجم الأوسط للإمام الحافظ سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبي القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني. الناشر: دار الحرمين – القاهرة.

١٢- مسند البزار، المنشور باسم (البحر الزخار)، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (المتوفى: ٢٩٢هـ)، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن سعد، وصبري عبد الخالق . الناشر: مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، (بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م).

١٣- القسم الموجود من صحيح ابن خزيمة، للإمام الحافظ أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري (المتوفى: ٣١١هـ)، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت.

١٤- لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، للإمام الحافظ زين الدين عبد الرحمن ابن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، الناشر: دار ابن حزم بيروت / لبنان. الطبعة: الأولى ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

١٥- سلسلة التفسير لأبي عبد الله مصطفى بن العدوى شلباية المصري. المصدر: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية http://www.islamweb.net

١٦-الجامع للإمام الحافظ أبي محمد عبد الله بن وهب بن مسلم المصري القرشي (المتوفى: ١٩٧هـ)، تحقيق: الدكتور رفعت فوزي عبد المطلب - الدكتور علي عبد الباسط مزيد، الناشر: دار الوفاء، القاهرة، الطبعة: الأولى ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م.

١٧- المصنف للإمام الحافظ أبي بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى: ٢١١هـ)، وملحق به جامع معمر بن راشد الصنعاني المتوفى سنة (١٥٤ هـ). المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي- الهند. يطلب من: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣.

الفهرس العام

مقدمة في أهمية الأخلاق والسمت الحسن في العبادات ١

كيف يمكن أن تساهم العبادات في الإصلاح الاجتماعي ٢

دور الزكاة في الإصلاح الاجتماعي ٢

دور السمت الحسن الصلاة في الاصلاح الاجتماعي ٤

ما المقصود بالسمت الحسن؟ ٤

من السمت الحسن: الثياب ٥

من السمت الحسن: الرائحة الطيبة ٦

من السمت الحسن: عدم رفع الصوت .....٦ – ٧

ومن السمت الحسن تقديم الأكبر سنا وقدرا في الصفوف الأولى ٧

مدرسة الصوم وأثرها في الإصلاح الاجتماعي ..... ٨ – ٩

مدرسة الحج وأثرها في الإصلاح الاجتماعي ..... ١٠ – ١١

الخلاصة ١٢

ثبت المراجع ..... ١٣ – ١٥

الفهرس العام ١٦